تاريخ الاستلام: 2018/09/17 تاريخ القبول: 2020/11/29 تاريخ النشر: 2020/12/30

د. طارق زيناي بن عيسى
جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي (الجزائر)
zinaitarek@gmail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 14/ العدد 02 –السنة 2020 ص ص 137–158
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

الملخص

من المقطوع به أن العرفان الصوفيَّ كون واسع من المباحث والقضايا والنظريات؛ التي استأثرت باهتمام الدارسين على مر العصور، بحيث إن محاولة الاقتراب منها ومحاورتها والاطلاع عليها تصطدم في كثير من الأحيان بتشعب ما كُتِبَ وغموضه واستغلاقه، من هذا المنطلق ارتأت هذه الدراسة أن تغامر صوب هذا البحر المتلاطم بغية الحفر عند عتباته في قضية أسالت الحبر الكثير قديما وحديثا، ألا وهي مبحث الرمزية الحرفية عند ابن عربي، الذي يعدُّ علامة فارقة فيه، بما تناوله في مؤلفاته الكثيرة عن كل ما يخصُّ الحرف في معهود كلام العرب، والحرف القرآني، والحروف المقطعة، وأسرار كل هذا وحقائقه وطبائعه وخواصه.

الكلمات المفتاحية: العرفان، الرمز، الحرف، ابن عربي.

Abstract

It is clear that the sufi gratitude is a wide universe of investigations, issues and theories, which have captured the attention of scholars throughout the ages, so that the attempt to approach them, discuss them and see them often collides with the complexity of what he wrote and his ambiguity and its closure. From this point of view, this study considered to venture towards this sea in order to dig at about case of a great importance in the past and the present, namely, the research of the symbolism of the craft of an Ibn Arabi, who is a landmark in all his writings, including all his writings, with regard to the letter in the words of the Arabs, the Qur'anic crafts, the syllables, the secrets of all this and its facts, natures and characteristics.

Keywords : *Arfan, Symbole, Personnage, Ibn Arabi.*

مَقَدَّمَةٌ :

إنَّ محاولة الاقتراب من الرمزية الحرفية عند أهم علم من أعلام التصوف العرفاني هو تحد ومغامرة غير محسوبة العواقب، كيف لا ؟ وأن هذا المبحث تتجاذبه حقول معرفية عديدة؛ لغوية وشرعية، بل يتجاذبه في كثير من معطياته المقدس والمدنس والعلوي والسفلي والملكي والشيطاني والعرفان والسحر، من هنا سنحاول تناول هذه القضية، ولكي نتدرج في تناولها تدرجا منهجيا محسوبا لابد من طرح أسئلة وإشكالات، نحاول أن نستوفي الكلام فيها والإجابة عنها : من ذلك كيف تلقى المحققون العارفون من الصوفية هذا الزخم الرمزي للحرف الذي أتاهم عن أسلافهم من رؤوس التصوف في القرون السابقة؟ وهل استطاعوا أن يؤسسوا علما مستقلا له أطره المنهجية والعلمية وجهازه المصطلحي والمفاهيمي؟ ولعلَّ هذا التساؤل يدفعنا للكلام عن محي الدين بن عربي خاصة، هل يمكننا أن نعده حجز زاوية هذا المبحث العرفاني، بما كتبه خاصة في فتوحاته المكية، والفصول والغايات؟ أيضا ما هي مستويات مقاربة الحرف عرفانيا عند القوم؟ فهذه الأسئلة وغيرها ستحاول هذه الدراسة الاقتراب منها، وقبل ذلك لابد من التطرق لمفهوم الحرف في اللغة والاصطلاح :

الحَرْفُ لُغَةً :

جاء في تعريف الحرف في المعاجم أنه : طرف الشيء وشفيرُه وحدُّه، والجمع حروف وأحرف، وقد ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج : 11]، **(الرازي، 1999، ص 70)**، وقد جاء عند الراغب الأصفهاني قوله فيه : « حَرْفُ الشيء:

طرفه، وجمعه: أحرف وحروف، يقال: حرف السيف، وحرف السفينة، وحرف الجبل، وحروف الهجاء: أطراف الكلمة، والحروف العوامل في النحو: أطراف الكلمات الرابطة بعضها ببعض...) وتَحريفُ الشيء: إمالته، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين، قال عزّ وجلّ: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ﴾ [النساء/ 46] ، ﴿ويُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ ﴾ [المائدة/ 41]» (**الأصفهاني، 1412هـ، ص 228**)

إنَّ الطرح اللغوي الذي يجعل معنى الحرف هو طرف الشيء وحده أو دلالته على الانحراف أو التحريف التي أتى بها القرآن الكريم في الآيات الثلاثة السابقة، سنجد لها تخريجات في محطات عرفانية كثيرة تفهم تصريحا أو تلميحا.

الحرف اصطلاحا :

لا نكاد نقدم جديدا في ذكرنا لدلالة الحرف في معهود كلام العرب أو في الدرس اللغوي، بوصفه أصغر وحدة صوتية يمكن أن تشكل معنى، كما في حروف المعاني، أو لا تدل على معنى في ذاتها كما في حروف المباني، أو أنه الرموز الجزئية التي تتشكل منها الكلمات، وتتحدد بها الألفاظ، ولكننا سنشير فقط لمعناها في الاصطلاح الصوفي، لأنه هو المقصود من دراستنا:

يقال : إنما سميت هذه الحروف بحروف المعجم « لأنها عجمت على الناظر فيها معناها » (**ابن عربي،2011، ص232**) أي خفيت واستشكلت، ولعل هذا التخريج سنجد له صدى فيما يستقبل من رمزية الأحرف في الطرح الصوفي.

إن مفهوم الحرف في العرفان الصوفي يتجاوز التحديدات الظاهرة، في علوم اللغة المختلفة من حيث دلالاته ومعانيه، فهو مفهوم زئبقي لا يمكن الإمساك بمفاصله وحدوده عند العرفاء الذين تكلموا عنه، بل إننا لنجد صعوبة في القبض على معنى

واضح له عند واحد منهم، كابن عربي أو النفري أو ابن سبعين على سبيل المثال، وهؤلاء يحسبون على التصوف فما بالك ممن يحسبون على أسرار الحروف وعلومه من الروحانيين الآخرين.

حَقِيقَةُ مَفْهُومِ الحَرْفِ فِي الفِكْرِ الصُّوفِيّ :

إننا إذا أردنا توصيف علم الحروف عند الصوفية، فلا نجد أقرب من قولنا عنه: إنه سر الأولياء وحقيقة العرفاء، وهذا لأن في البدء كان الحرف، وهم في البدء كانوا، فهو الذي به ظهرت أعيان الموجودات، فهي لم تظهر إلا بـ ((كن))، يقول ابن عربي : « كانت الأعيان مستعدة في ذواتها، في حال عدمها، لقبول الأمر الإلهي، إذا ورد عليها بالوجود، فلما أراد بها الوجود قال لها : ((كُنْ)) فتكونت وظهرت في أعيانها، فكان الكلام الإلهي أول شيء أدركته (الأعيان) من الله تعالى » (**ابن عربي، 2011 ج03، ص 89– 90**)

لقد عقد السراج الطوسي بابا فيما قيل في فهم الحروف والأسماء، فنقل عن أحد العرفاء قوله : « إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم : ما عبر عنه وما أشير إليه؛ مستنبط من حرفين من أول كتاب الله تعالى، وهو قوله : ((بسم الله، والحمد لله))، لان معناها بالله ولله » (**الطوسي، اللمع، 1960، ص 124.**)

إن العرفانية الصوفية تنطلق في رؤيتها للحرف كمكون بنيوي للكلمات على أنه مما علمه الله آدم كما جاء في القرآن الكريم؛ وكل حرف له من الأسرار والنكت واللطائف ما يختلف عن حرف آخر، ولكن هذه الحروف تتكاتف جميعا لتدلَّ على حقيقة واحدة هي الحق تعالى، معنى هذا الكلام أن الحرف سبيل للحرف يعطيه ويأخذ منه، ما دام يخرج من مشكاة روحانية واحدة، ولعلَّ هذه اللفتة هي التي أشار إليها النفري في قوله : « إذا أرسلتك إلى الحروف فلتقتبس حرفا من حرف، كما

تقتبس نارا من نار ، أقول لك أخرج ألفا من باء، أخرج باء من باء، أخرج ألفا من ألف » (**النفّري، المواقف،1997، ص 307**) ، فهذا التناسل والتوالد هو من قبيل القرابة والوراثة بين الحروف، فهي وإن كانت تتفاضل رمزيا وعرفانيا، إلا أنها تشترك في الدلالة على موجدها ومنطقها وبارئها، فهي سره المتجلي في الكلمات الأسمائية والكونية.

ينقل ابن خلدون عن بعض محققي علماء التصوف المشتغلين بعلم أسرار الحروف قوله : « اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه، أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم » (**ابن خلدون، ج02، 2004، ص 304**) لاشك أننا – من خلال القول السابق – إزاء عالم مليء بالأسرار، فمن وُفِّق لمعرفته والتمكن منه، فله القدرة على الإجابة عن كل ما يطرأ له من أسئلة وخفايا، فهو على رأي قول أحد الباحثين « هو علم ميزان حقائق الوجود، الذي يمكن من العثور على مفاتيح كل المعارف من خلال فحص العناصر المكونة للكلمات وحروفها » (**مفتاح، 2011، ص 34**)

إن السؤال المطروح هنا هل علم أسرار الحروف بما هو عليه هو مما يُتَعَلَّمُ كغيره من العلوم والصناعات، أو هو منحة ربانية يؤتاها العبد إذا وصل إلى مراتب الأولياء، بحيث يكون في حقه كرامة؛ لأنه قائم أساسا على الكشف والذوق، وينقل ابن خلدون في هذا الصدد عن البوني قوله في هذا الصدد : « ولا تظنّ أنّ سرّ الحروف ممّا يتوصّل إليه بالقياس العقليّ، وإنّما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهيّ » (**ابن خلدون، ج02، 1967، ص 283**) أو أنهما ضروريان كلاهما (الوهب والكسب) حتى يصل المشتغل به إلى درجة العارف الذي « يرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب » (**ابن خلدون، ج02، 1967، ص 304**) ولعل أقرب ما يمكن

أن يقال جمعا بين الرأيين أن علم أسرار الحروف هو ملكة وموهبة ومنحة أولا ثم هو دربة وصقل وتعلم ثانيا، خاصة وأن الشواهد التاريخية قد جاءت متكاثرة عن الثقات في هذا الشأن، ولهذا تصبح الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا تتبع واستقراء ما جاء عن المشتغلين به، وكيف هو حالهم معه قبل معرفته وبعده، ولكن الأمر أصعب من هذا لأن مثل هذه الحالة يمكن أن تشتبه بغيرها من العلوم الروحانية كالسِّحر مثلا، وإن كنا لا نستطيع معرفة الملهم إلهيا من البشر ممن صنيعه وقوله من نزغات الشياطين، بخلاف من تعلمه كباقي العلوم والحرف والصناعات.

إن تعامل الناس مع روحانية الحرف وسره ترجع بهم إلى إحدى هذه الطوائف، فإما أن يكون من أصحاب الطلاسم (السحر والشعوذة)، وهؤلاء يتعاملون مع الحرف تعاملا معقدا؛ حيث يتفاعل مع أسرار حركات الأفلاك ومجاميع الأعداد ونسبها، بالإضافة لبعض البخورات الجالبة للقوى الروحانية العلوية، وهم في هذا يسعون لربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، أو قل ربط الروح بالجسد، وهذا النوع استغلَّ أصحابه قوة الحرف وسرُّه في أغراض شيطانية، فأولى الجهل به، وكتب القوم خير دليل على هذا (منها كتابا البُوني شمس المعارف الكبرى والأنماط، وكتاب مسلمة المجريطي في كتابه الغاية، والكتاب المنسوب للغزَّالي الطب الروحاني للجسم الإنساني في علم الحرف والكتاب المنسوب للسيوطي الرحمة في الطب والحكمة)، وفي هذا المعنى يقول النفري: « يا عبد اخرج من بين الحروف تنجُ من السحر » (**النفَّري، 1997، ص 167**)

وإما أن يكون من أصحاب التصرف في الأسماء من المتصوفة والعرفاء، وهؤلاء يتعاملون مع الحرف بوصفه سرا إلهيا يدركون حقيقته بالمجاهدة والكشف كرامة وتأييدا، ومن خلال هذه المعرفة / الكرامة يستطيعون تسخير عالم الطبيعة لما يريدونه،

فتحصل لهم بذلك خوارق العادات المخالفة لنواميس الكون، والشواهد في هذا من كتب الطبقات والمناقب مستفيضة عن العرفاء، بل إنَّ كثيرا من القصص المقطوع بنسبتها إلى أصحابها وردت حتى في صدر الأمة الأول عن التابعين وتابعيهم، ومن جاء بعدهم، والفرق بينهم وبين أصحاب الطلاسم أنهم لا يحتاجون لأي استعانة من القوى الفلكية (وإن كانوا يعتقدون أن للأفلاك أرواحا ملائكية تقوم عليه) ولا النسب العددية ولا البخورات، لأن مددهم أعظم من كل هذا، ولكن مع هذا يجب معاملة الحرف معاملة الواسطة لمعرفة الرب مثله مثل العلم، فإذا كان مقصود الإنسان الحرف أو العلم دون خالقهما فقد تنكب الطريق السليم ونكص على عقبيه، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه النفري بقوله : ((يا عبد الحرف حرفي والعلم علمي وأنت عبدي لا عبد حرفي ولا عبد علمي، فقف بين يديَّ لا بين يدي حرفي، وقف بين يدي لا بين يدي علمي، إن حرفي يقوم بين يدي كما تقوم، وإن علمي يقوم بين يدي كما تقوم)) **(النفري، 1997، ص 168)** لأنه يعلم أن من الناس من لا يفرق بين المقاصد والغايات وبين الوسائل، فيذهب للوسيلة (البداية) ذهاب العارف للغاية (النهاية).

وإما أن يكون من أهل السيميا الذين هم بين هؤلاء وهؤلاء، فهم عندهم معرفة بطبع الحرف ومناسبته مع الأعداد، ولكن ليس لهم كشف ولا ذوق ولا مدد رباني يمكنهم من معرفة أسرار الله الخفية، يقول ابن خلدون مقررا هذه الفكرة : «فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت، الّذي هو نتيجة المشاهدة والكشف، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات، وتصرّف بها من هذه الحيثيّة وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور » **(ابن خلدون، ج02، 1967، ص 304)**

ولكن مع هذا يمكن أن يختلط الأمر على أفراد الناس فيغدو عمل المتصوف سحرا وطلسما، ويغدو عمل السيميائي تصوفا وعرفانا، ويرجع هذا للتشابه الكبير في الوسائل وإن اختلفت المقاصد، كما حدث للبوني على سبيل المثال، فإنه وإن كان من يحسبه من العرفاء (ذكره النبهاني في جامع كرامات الأولياء)، إلا أن اشتغاله على الحرف جنح به إلى السحر والطلسم كما في شمس المعارف الكبرى والأنماط.

وهذا الأمر واسع وقد جعل ابن خلدون في مقدمته أكثر من فصل عن أسرار الحروف وطبائعها وقواها وكيفية كشف المجهول الغائب من خلالها كما في فصل : ((الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية))، حيث نقل عن المشتغلين بهذا الحقل الروحاني صفحات كثيرة تعدُّ مقدمات لمعرفة أصل هذا العلم.

وجماع ما قلناه عند المحققين من المتصوفة والفقهاء من غيرهم هو منع الاشتغال بمثل هذا درءا للمفسدة وسدًّا لذريعة الشرك والسحر، يقول ابن عربي في هذا الصدد – وهو العارف بكل خبايا هذا العلم ومتعلقاته – « فالأولى ترك طلبه، فإنه من العلم الذي اختصَّ الله به أولياءه على الجملة، وإن كان عند بعض الناس منه قليل، ولكن من غير الطريق الذي يناله الصالحون، ولهذا يشقى به من هو عنده ولا يسعد » **(ابن عربي، 1992، ص 208)**

لابد بداية أن نشير إلا أن مجموع ما تكلم به العرفاء والمتصوفة عن الحرف، فهو لا يخرج عن كونه كلاما عن الحرف مفردا من حيث حقيقة ظاهره وباطنه ومركبا من حيث دلالته على معنى الكلمة من حيث حقيقة الحروف المكونة لها ظاهرا وباطنا، ومن حيث دلالة الكلمة بمجموع حقيقة حروفها ظاهرا وباطنا كذلك، ويلحق بذكر الحرف لوازمه كالنقاط والحركات واللين... بل وحتى الأعداد والأشكال والخطوط وغيرها، وكل هذا وغيره عند القوم له معنى وله سرٌّ، فلا تظنن أن كل حرف أو

حروف أو ما يتعلق بهما عند الصوفية يأتي دون قصدية عرفانية حَقِّيَّةٍ من ورائه، والتي تنتهي جميعها في النهاية لإثبات ربوبية ووحدانية الحق، وهذا ما أشار إليه النفري بقوله : ((يا عبد الحرف لغات وتصريف وتفرقة وتأليف وموصول ومقطوع ومبهم ومعجم وأشكال وهيئات، والذي أظهر الحرف في لغة هو الذي صرَّفه، والذي صرَّفه هو الذي فرَّقه، والذي فرَّقه هو الذي ألَّفه، والذي ألَّفه هو الذي واصل فيه، والذي واصل فيه هو الذي قطَّعه، والذي قطَّعه هو الذي أبهمه، والذي أبهمه هو الذي أعجمه، والذي أعجمه هو الذي أشكله، والذي أشكله هو هيَّأه، ذلك المعنى هو معنى واحد، ذلك المعنى هو نور واحد، ذلك الواحد هو الأحد الواحد)) (**النفّري، 1997، ص 178**)

لاشك أن أهمية الحرف أكثر ما تظهر في الطرح الصوفي باعتبار وجوده في القرآن الكريم؛ الذي هو كلام الله، وهذه الأهمية تتجلى أكثر في أنهم نظروا إليه لا باعتبار رسمه الدال على المراد المفهوم منه ظاهرا، بل إنه الحامل للحقائق والأسرار واللطائف التي تجل على فهم الناقصين من البشر، وفي هذا يقول أبو سعيد : « كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله عز وجل على قدر قربك وحضورك عنده، فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر؛ إذا سمعت بقوله : ((الم ذلك)) فللألف علم يظهر في الفهم غير ما يظهر اللام » (**الطوسي، 1960، ص 125**) وسبيل إدراك ذلك الفهم هو « على قدر المحبة، وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت في الفهم » (**الطوسي، 1960، ص 125**)

إن النص القرآني هو المصدر الأول للعرفان الصوفي فيما يخص الحديث عن بواطن الحرف أو قل روحانيته، ونحن إذ نتكلم عن هذا المبحث الصوفي الخاص بالرمزية الحرفية، لا يهمنا ظاهر الحرف من حيث إحصاء أقسامه وأكثرها ورودا أو

نزول القرآن على سبعة منه، والخلاف في معناه عند أهل الاختصاص، وإعرابه وبناؤه ... فكل هذا مع أن له من الأهمية الشيء الكثير، كيف لا ؟ وهو كلام الله المعجز في كلّيته، لكن الطرح الصوفي يتجاوز ظواهره المفهومة إلى بواطنه الخفية، وهي ترجع على حسب طبيعة كل حرف وارتباطه بالأحرف السبعة النورانية (الآدمية والقبض والبسط والنبوة والروح والعلم والرسالة.(**الدَّبَّاغ، 2002، ص ص79– 110**).

إن مجرد الكلام عن السر الإلهي المودع في الحرف القرآني يجعلنا ملزمين حصرًا أن نشير إلى القيمة الرمزية والعرفانية المطلقة للحرف بوصفه بنية تركيبية للأسماء أو قل للكلمات –كما جاء في القرآن الكريم – بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27]، إن هذه الآية تحيلنا رأسا إلى لا نهائية كلمات الله وكمالها واتساعها غير المحدود، وفي المقابل لا نهائية ولا محدودية الأسرار المتعلقة بها والمستبطنة فيها، لأنها كلام الله.

وفي هذا المقام لابد من الإشارة إلى أنَّ ابن عربي قد خصَّ سر الحرف القرآني بكتاب : ((الجمع والتفصيل في معرفة معاني التنزيل))، ذكره في فتوحاته (**ابن عربي، 1992، ص 266**)، والذي لم يشر إليه أحد ممن تناول ابن عربي، وفيه تناول جميع ما يخص مباحث الحرف في القرآن الكريم، وفي الدرجة الأولى الأحرف المقطعة– كما أشار إلى ذلك في فتوحاته – فقال في حقها : « هذا أوان الكلام على هذه الحروف المجهولة المختصة : على عدد حروفها بالتكرار ، وعلى غير حروفها بغير التكرار ، وعلى جملتها في السور، وإلى إفرادها في ((ص)) و((ق)) و ((ن))، وتثنيتها في ((طس)) و((طه)) وأخواتها، وجمعها في ثلاثة فصاعدا حتى بلغت خمسة حروف؛ متصلة ومنفصلة، ولن تبلغ أكثر، ولم وُصِل بعضها وقطع بعضها؟ ولم كانت السُّوَر

بالسين ولم تكن بالصَّاد؟ ولم جهل معنى هذه الحروف عند علماء الظاهر، وعند كشف أهل الأحوال؟ » (**ابن عربي، 1992، ص 266**)

لقد اختلف الصوفية – بعدما اتَّفقوا على قابلية الحروف للتأثير والفعل – هل الحرف يؤثر لوحده أم يجب أن يكون مركَّبا مع غيره، عندما يخرج من كونه ملفوظا أو مرقوما إلى كونه مستحضرا، فمنهم من رأى للحرف قدرة على التأثير لوحده؛ لأن كل حرف له خاصية وطبعا وسرًّا في نفسه، ومنهم من منع ذلك، ورأى أن الحرف لا سلطان له إلا في انتظامه مع أحرف أخرى، ولعل ابن عربي قد حسم الخلاف عندما رأى أن إطلاق الحكم من الطرفين هكذا خاطئ وصائب في الوقت نفسه، لأنه يحتاج إلى تفصيل، وإن كان يميل عموما إلى القول بأن الحرف إنما يعمل مع غيره من الحروف لا وحده، يقول في هذا : « ومن هنا منع من منع أن يعمل الحرف الواحد، فإنه رأى (الضمير يرجع إلى الحكيم الترمذي)، مع الاقتدار الإلهي، لم يأت في الإيجاد حرف واحد؛ وإنما أتى بثلاثة أحرف : حرف غيبي وحرفين ظاهرين، إذا كان الكائن واحدا، فإن زاد على واحد، ظهرت ثلاثة أحرف» (**ابن عربي، 1992، ص 204**)، وتجب الإشارة هنا إلى أنَّ أقوى الحروف وأكثرها أثرا لا يكون لها ذلك إلا « إذا اسْتَحْكَمَ سلطان ((استحضارها))، واتحد المستحضِرُ لها، ولم يبق فيه مُتَّسَعٌ لغيرها، ويعلم ما هي خاصيتها حتى يستحضرها من أجل ذلك » (**ابن عربي، 1992، ص 207**)

إن سرَّ تأويل الحرف في العرفان الصوفي يكمن في أنه خاضع مثله مثل أي مفهوم أو مصطلح صوفي لسلطة الذوق والكشف، ولهذا تأويله هو بعدد أنفاس من أوَّلوه، فلو نظرنا على سبيل المثال للنفري كعينة تطرقت للحرف عموما لا لكل حرف على حدة، وأردنا أن نتعرف على حقيقة نظرته له، فإننا دون شك، سنرجع منه، كما

يقول المثل العربي ((بِخُفَيَّ حُنَيْنٍ)) لسبب بسيط أن مجمل ما كتبه في مواقفه ومخاطباته يبعث على الدهشة والحيرة، فالحرف عنده ألوان شتى، يأخذ في كل موقف أو مخاطبة معنى يختلف عن غيره، بل إنه في المخاطبة نفسها يأخذ المعنى ونقيضه، فمثلا نراه يقول في المخاطبة (17) : ((يا عبد أنا أقرب من الحرف وإن نطق، وأنا أبعد من الحرف وإن صمت)) **(النفّري، 1997، ص 167)**

فهنا الحرف عنده له وظيفتان يمكن أن يكون ناطقا أو صامتا، ولك أن تبحث عن صمته إذا فهمت نطقه أو عن نطقه إذا فهمت صمته، وعلاقة ذلك بالبعد والقرب الإلهيين، وهذه المخاطبة – كغيرها — تحمل في نفسها الوضوح والغموض، الجلاء والخفاء، فإنك إن لم يكن لك ذوق كذوق صاحب القول، فستخبط خبط عشواء، ولن تصل لمقصود صاحبه حتى يلج الجمل في سم الخياط، وتصبح أحد رجلين : إما قارئ عارف عميق تستبطن المعنى البعيد، وإما قارئ سطحي مباشر حظه المعنى القريب، ولكي أبرهن لك عن صدق حكمي، لك أن تقرأ هاتين المخاطبتين، ثم تقول لي ما فهمته منهما يقول : ((أنا عبد رب الحرف والمحروف فما لهما مني مجال، وأنا مرقب الحرف والمحروف فما لهما عن جعلي مدار)) **(النفّري، 1997، ص 168)**، ((يا عبد للحرف حكم أنا مودعه، وللمحروف حكم أنا واضعه، فلا تذهب بالحكم المودَع عن الحكم المودِع، فإليه يرجع ما أودع، وبه ينفد ما حكم)) **(النفّري، 1997، ص 168)**.

رَمْزِيَّةُ الحَرْفِ فِي الفِكْرِ الأَكْبَرِيّ :

لقد أولى ابن عربي اهتماما بالغا لرمزية الحرف في كتبه ونخص بالذكر الجزأين الأول والثاني من فتوحاته المكية وفصوص الحكم وعنقاء مغرب والكهف والرقيم وغيرها في محتواه الرمزي، يقول عنه عاطف جودت نصر : « ولا يخفى أن ابن عربي

أشرب حروف الأبجدية العربية في هذه الأشعار إشارات ورموزا مصطبغة بطابع عرفاني متسق تمام الاتساق مع المنهج العام الذي اتبعه الصوفية في فهم الحروف وتأويلها » **(عاطف جودة نصر، 1978، ص 416)**

فقد تتبع جميع الحروف، وأعطى لكل واحد منها معنى يخالف غيره، بل جعل الحروف عالما مستقلا بذاته، يقول : « اعلم وفقنا الله وإياكم ! أن الحروف أمة من الأمم، مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم » **(ابن عربي، 1992، ص260)** ، ولهذا لابد من المتعامل مع الحرف في الهجاء العربي أن لا ينظر إليه بسذاجة أهل الظاهر، لأن خلف كل حرف هوية وجودية كاملة لا عدمية كما يُنظر إليه في الطرح النحوي (يعرف الحرف بدليل العدمية، أي إنه ما لا يقبل علامة الاسم ولا الفعل)، ونحن إذ نتكلم عن خصوصية الرؤية الأكبرية لرمزية الحرف إنما نحن نختصر واسعا، إذ إنه لا يسعنا المقام لتتبع ما كتبه لا في ظاهر خطابه ولا في باطنه؛ الذي لا يدرك له قعر.

إنَّ الحروف في الطرح الأكبري تشكِّل تجليا لحقائق الحضرة الإلهية ومراتب الحقائق الكونية وعوالم الإنسان الروحانية، حيث بين أنَّ الحروف في أصل خلقها وإيجادها جاءت من العنصر الهوائي في العالم العنصري، يقول ابن عربي شارحا فكرة العلاقة بين الأحرف العربية الثمانية والعشرين وعدد المنازل الفلكية، وعلاقة ذلك بالعالم العنصري : « والعالم العنصري إنما نُسب إلى العناصر لأنها السبب الأقرب، والعناصر إنما حدثت عن حركات الأفلاك؛ وحركات الأفلاك إنما قطعت ثمانيا وعشرين منزلة في الفلك، الذي قطعت فيه، والعالم إنما صدر من ((نفس الرحمان))، لأنه نفَّس به عن الأسماء (الإلهية)، لما كانت تجده من عدم تأثيرها، والنَّفس مناسب لعنصر الهواء، فتشكَّلتِ المنازل الفلكية في الهواء العنصري لما ظهرت

العناصر، فلما جاء حكمه (حكم العالم العنصري)، فيما تولد عن العناصر من المولَّدات، ظهرت في أكمل نشأة المولَّدات– وهو الإنسان – صور الحروف ثمانية وعشرين حرفا عن ثمانية وعشرين منزلة » (**ابن عربي، 1992، ص 123**) ووجه مطلقية الأحرف في إيجاد الكلمات هو أنها تأخذ هذا الوصف من المنازل الفلكية التي جاءت منها؛ والتي هي بدورها لها المطلقية في إيجاد الحوادث والكائنات.

إنَّ من أوجه تجلي الرمزية الحرفية عند ابن عربي هو استحضارها في قالب عرفاني متعلق بالذات الإلهية والحقيقة المحمدية ومستويات المراتب الكونية وغيرها من المحطات الغيبية الأخرى، يقول : « فإني نظرت إلى الكون وتكوينه، وإلى المكنون وتدوينه، فرأيت الكون كله شجرة، وأصل نورها من حبة ((كن))؛ قد لقحت كاف الكونية بلقاح حبة ((نحن خلقناكم))، فانعقد من ذلك البزر ثمرة ((إنا كل شيء خلقناه بقدر))، وظهر من هذا غصنان مختلفان أصلهما واحد.. وهو ((الإرادة)) وفرعها ((القدرة))، فظهر عن جوهر الكون معنيان مختلفان .. كاف الكمالية ((اليوم أكملت لكم دينكم)).. وكاف الكفرية ((فمنهم من آمن ومنهم من كفر)) .. وظهر جوهر النون ((نون النكرة)) ((نون المعرفة)) فلما أبرزهم من ((كن)) العدم.. على حكم مراد القدم.. رش عليهم من نوره... فأما من أصابه ذلك النور، فقد حدق إلى تمثال شجرة الكون المستخرجة من حبة ((كن))، فلاح له في سرِّ كافها ((كنتم خير أمة))، واتضح له من شرح نونها ((أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه))، وأما من أخطأ ذلك النور، فقد طولب بكشف المعنى المقصود من حرف ((كن))، فإنه غلط في هجائه.. وخاب في رجائه.. فنظر إلى مثال ((كن)) .. فظن أنها كاف الكفرية بنون النكرة .. فكان من الكافرين .. وكان حظ كل مخلوق من كلمة ((كن)) ما علم من هجائها وهجاء حروفها.. وما

شهد من سرائر خفائها دليله... » (**ابن عربي، شجرة الكون، 1985، ص41– 44**)، فمدار الأمر عند ابن عربي إذن هو الحرف؛ الذي به وحده كان غير الله معه من كل السوى (هو كل ما عدا الله من مخلوقاته) المقدس وغيره، حيث كان الله ولا شيء معه، وهذا هو منطوق قول أبي بكر الشبلي : « الْوَاحِد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف » (**القشيري، الرسالة القشيرية، 2001، ص12**)

هذا وقد شرح ابن عربي هذا المعنى في ((خواص الحروف وتأثيراتها ومصادرها))، فقال في كلام مفصل : « فمنها (أي الحروف) ما له أثر في العالم الأعلى، وتنزيل الروحانيات بها إذا ذُكرت أو كتبت في عالم الحسِّ، ومنا ما له أثر في العالم الجبروتي من الجن الروحاني، ومنها ما يؤثر ذكره في خيال كلِّ مُتَخَيِّلٍ، وفي حسِّ كل ذي حسٍّ، ومنها ما له أثر في الجانب الأحمى الأعلى، الذي هو موضع النِّسَبِ... » (**ابن عربي،2011، ج12، 1992، ص 258**)

إذا تأملنا ما ذكره ابن عربي في مجموع مؤلفاته عن أسرار الحروف وخصائصها وطبائعها وقواها وحقائقها، نجد أن ما جاء به يقترب أن يعادل ما عند غيره، ممَّن تكلموا عن الحرف مجتمعين، بحيث تصبح محاولة تتبع واستقصاء ما كتبه من الصعوبة بمكان، فيكفينا ما كتبه في الفتوحات المكية دليلا على ما قلناه، ولهذا ستحاول هذه الدراسة أن تلخص ما جاء في أهم كتب الرجل، بما يظهر منه المقصود من بيان علم أسرار الحروف ورمزيتها في العرفان الصوفي، ولابد في هذا المقام أن نشير إلى اعتمادنا الكبير على الجزء الأول من الفتوحات المكية؛ الذي خص كل حرف بكلام مستقل، وكذا كتابه الآخر ((توجهات الحروف))، الذي تناول فيه كل حرف بدعاء خاص له علاقة روحانية بسر الحرف وحقيقته وخواصه.

لاشك أن سلطان الكشف هو الذي جعل للحروف مراتب كمالية متفاوتة، فراح ابن عربي من خلاله يجعل لكل عالم عوامَّه؛ وهي الجيم والضاد والخاء والدال والغين والشين، وخواصه؛ وهي حروف أوائل السور، وخواص خواصه؛ وهي الألف والياء والباء والسين والكاف والطاء والقاف والتاء والواو والصاد والحاء والنون واللام والغين، وخلاصة خاصة خاصته؛ وهي الباء، وحروف صفا خلاصة خاصة خاصته؛ وهي النون والميم والراء والباء والدال والزاي والألف والطاء والياء والواو والهاء والظاء والثاء واللام والفاء والسين.

وزيادة على هذا هناك عوالم أخرى متعلقة بحروفها بعينها كالعالَم المرسَل، والعالم الذي تعلق بالله، وتعلق به الخلق، والعالم الذي غلب عليه التخلُّق بأوصاف الحق، والعالم الذي غلب عليه التحقق، والعالم الذي تحقق بمقام الاتحاد، ومنها العالم الممتزج الطائع... (**ابن عربي، ، ص 262– 263**) ، ومن هذه الحروف كما رأينا من يتماثل في البسائط، وبالتالي يتماثل في الأسماء.

إذا كانت الحقائق الكمالية للبشر تخضع في الفكر الصوفي لتراتبية معينة نزولا من الهرم إلى ما دونه بدءا بغير الرسل والأنبياء، حيث يشتهر عندهم ما يسمى بالقطب والإمامين والأوتاد والأبدال والنقباء... فإن ابن عربي قد استعار ما يخص التعيُّنات الكمالية للبشر وجعلها للحروف، فالألف عنده هو مقام القطب، والواو والياء المعتلتان، هما مقام الإمامين، والألف والواو والياء والنون، مقام الأوتاد، والألف والواو والياء والنون وتاء الضمير، وكافه وهاؤه، هي مقام الأبدال، وهكذا... ولعل ابن عربي في إسقاط الرتب الكمالية على الحروف، يرجع إلى ما أسلفنا ذكره؛ وهو أن الحروف عنده هي أمة من الأمم المخاطبة والمكلفة، فمن الوارد أن يكون فيهم من التفاضل والكمال ما يكون في غيرهم من الأمم الأخرى، ولكن مدار هذا التصنيف–

كما هو ملاحظ – لا يخضع للنقل ولا للعقل، وإنما الاعتبار فيه للذوق والكشف والعرفان، ولهذا – لاشك – أن الاختلاف وارد فيه على حسب الأذواق والكشوفات والعرفان، ولكن هنا يمكن أن يلاحظ القارئ أن هناك من الحروف ما يتكرر حضوره في أكثر من مرتبة كمالية كالألف والواو والياء والنون مثلا، وهذا ما يتعارض مع الطرح الصوفي في نظرتهم للمراتب أو المقامات الكمالية؛ التي يختلف فيها أفراد هذه المراتب، ولكن ابن عربي تنبه لمثل هذا فقال مستدركا وموضحا هذا بقوله : « وإياك أن تتوهم تكرار هذه الحروف في المقامات أنها شيء واحد له وجوه (متعددة)، إنما هي مثل الأشخاص الإنسانية، فليس زيد بن علي هو عين أخيه زيد بن علي الثاني، وإن كانا قد اشتركا في البنوة والإنسانية ووالدهما واحدٌ، ولكن بالضرورة نعلم أن الأخ الواحد ليس عين الأخ الثاني، فكما يفرّق البصر بينهما والعلمُ، كذلك يفرق العلم بينهما في الحروف عند أهل الكشف من جهة الكشف » (**ابن عربي، ص 237**)

لقد تكاثرت أوصاف الحروف عند ابن عربي، ولبست في معظمها لبوسا عرفانيا مركبا، بل إنها في كثير من الأحيان، تخرج عنده مخرج المفارقة، خاصة عندما يجعل للحرف خاصية وطبعا حارا أو باردا أو رطبا أو يابسا، أو يجعله ينتمي لأحدى عناصر العالَم؛ النار والهواء والماء والتراب، بل أكثر من ذلك أن يجعل له طولا وعرضا، كما يقول ابن عربي : « فإذا سمعت أحدا من أهل طريقنا، يتكلم في الحروف، فيقول : « إن الحرف الفلاني ((طوله)) كذا ذراعا أو شبرا، و((عرضه))كذا – كالحلاج وغيره – فإنه يريد بـ ((الطول)) فعلَهُ في عالم الأرواح، وبـ ((العرض)) فعله في عالم الأجسام... » (**ابن عربي، ص 95**)، فالمعتبر إذن في مثل هذه الأوصاف يرجع للقيم الرمزية التي يضفيها العارف (المتصوف) على حروفه، بحيث يخرجها من جنس ما يراد بها لفظا وخطا في معهود كلام العرب إلى دلالات رمزية موازية تتوافق وخصوصية

الاصطلاح الصوفي والاستعمال العرفاني، وهذا الانحراف الدلالي بالحرف يسميه ابن عربي بالحروف المستحضرة، ويقصد بها «الحروف التي يستحضرها الإنسان في وهمه وخياله، ويصورها» (**ابن عربي، 2011، ص 202**) ، وهذه الرتبة تشكل مع الأحرف الرقمية (المكتوبة والمرئية)، والأحرف اللفظية (المنطوقة) مراتب الأحرف، التي ليس هناك غيرها، وهي تتوافق مع مسمى الموجود في الذهن، والموجود في الرسم، والموجود في النطق، بل يذهب ابن عربي إلى أبعد من هذا لما يجعل لأهل الكشف قدرة على تجسيم المجرد من الحروف اللفظية؛ التي يرى أنها متى قيلت ارتبطت بها أرواحها فلا يدركها الفناء لذلك، يقول ابن عربي مجملا ما قلناه : « وهذه الحروف الهوائية اللفظية لا يدركها موت بعد وجودها، بخلاف الحروف الرقمية، وذلك لأن شكل الحرف الرقمي والكلمة الرقمية تقبل التغيير والزوال؛ لأنها في محل يقبل ذلك، والأشكال اللفظية (هي) في محل لا يقبل ذلك، ولهذا كان لها البقاء، فالجو كله مملوء من كلام العالم، يراه صاحب الكشف صورا قائمة » (**ابن عربي، 2011، ص 207**)

خَـاتِمَةٌ

مما سبق يمكن أن نستنتج ما يلي :

- ✓ الحرف في الاصطلاح الصوفي هو الوسيلة الأبرز للتواصل بين الأولياء والعارفين؛ بحيث يصبح الحرف فضاء ذهنيا مشتركا بينهم.
- ✓ الكلام السابق يحيلنا إلى مفارقة عجيبة مفادها أن تواصل العارفين الواصلين الكُمَّل (الأقطاب والأغواث) انتقل من خطاب الكلمة والجملة إلى خطاب الحرف، وهذا مما يبعث على الحيرة والتعجب.
- ✓ أهمية الحرف في الطرح الصوفي والأكبري على وجه الخصوص أنها تتقدم على الأسماء في الأسرار والحقائق؛ إذ منها تأتي الأسماء، والجزء أو المفرد مقدم في المعرفة على الكل أو الجمع، فالجزء هو الحامل للحقائق والخفايا أكثر من الكل، ولهذا اختص الله الأحرف المقطعة في القرآن لتكون مدار إعجاز للبشر أكثر من الكلمات أو الجمل محكمة ومتشابهة.
- ✓ إذا كانت فلسفة ابن عربي الصوفية قد تركزت في مجملها على الجانب العرفاني والسلوكي، والتي ترسم معالم العلاقة بين الرب والعبد، أو تؤسس لمفاهيم خاصة بالرب أو العبد، فإن فلسفته العددية والحرفية لم تخرج عن هذا السياق، فالمطالع لما كتبه الرجل يلحظ دون كثير جهد أنه قد اتخذ من رمزيتهما وسيلة للتعبير عن الذات الإلهية وأسمائه وصفاته وأفعاله، بل إنه جعل كثيرا من كتبه ورسائله تدور في هذا المنحى من ذلك رسالة الأحدية ورسالة شجرة الكون وكتاب الميم والواو والنون على سبيل المثال فضلا عن الفتوحات والفصوص.
- ✓ طريق معرفة سر الحرف في العرفان الصوفي – دون غيره – هو طريق الكشف، ولهذا استفاض الحديث عند محققي الصوفي ممن تعمقوا في هذا العلم، وتحققوا

بمباحثه أن مدار معرفته والإحاطة بكثير من خفاياه وحقائقه لا يدرك بالعقل المجرد والنظر الغفل، وإنما سبيله الذوق والكشف.

- ✓ ابن عربي في كلامه عن عرفانية الأحرف وطبائعها وصفاتها الروحية يعتمد على صورتها وأشكالها (المستوى الأيقوني للحرف)، بحيث يجعل لكل شكل منها ما يدلُّ عليه في العالم الحسي أو الروحاني، وهذا- في رأيي – سبقٌ صوفي لأهمية الفضاء الطِبَاعي الكاليغرافي للأحرف بوصفها كيانات تعنى بالمؤشرات الأيقونية ذات الأبعاد السيميائية المتعددة (مثلا حرفا الألف والنون على سبيل المثال).
- ✓ لقد أعطى الصوفية للحروف رمزية تتوافق مع حركات الإنسان المختلفة، وهذا يدلُّ على خصوصية تأويل الصوفية لرسم صور الحروف على مقتضى ما يرونه من حركات جسم الإنسان وسكناته.
- ✓ القيم العددية والحرفية كما رأينا تكاد تخلو من أي بعد فني / جمالي، لأنها ببساطة خرجت عن سياق ما يسمى بالنظم أو البيان العربي، فهما يمثلان قيمًا عرفانية مجردة تنحو منحى رسم تصورات محددة لكل حرف أو عدد على حدة.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد، المقدمة، تح : عبد الله مُحَمَّد الدرويش، ج02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2004 ، ط01.

ابن عربي محي الدين :

2. الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، ج01، ج03، ج12، ج13، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1992، ط02.
3. شجرة الكون، تح : رياض العبد الله، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985، ط02.
4. ابن المبارك أحمد ، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدّباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط3، 2002.
5. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح : صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق / بيروت، 1412 هـ ،ط01.
6. زيدان يوسف، ابن عربي، الجيلي، شرح مشكلات الفتوحات المكية، دار الأمين، القاهرة، مصر، 1999 ط01.
7. الطوسي أبو نصر السراج ، اللمع، تح : عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960، دط.
8. عبد الكريم القشيري ، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ط01.
9. مُحَمَّد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تح : يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، 1999، ط05.
10. مفتاح عبد الباقي، بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011، ط01.
11. نصر عاطف جودة، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس/دار الكندي، بيروت، لبنان، 1978، ط01.
12. النفّري مُحَمَّد بن عبد الجبار، المواقف ويليه المخاطبات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1997، دط.